

الفصل الرابع

قصة مصر

عصر الفترة الأولى والدولة الوسطى والإمبراطورية
اضطراب النظام الحكومي وبدء عصر الفترة الأولى^(١)

انتهى عصر الأهرام وانهار صرح نظامه بعد أن ظل نحو ألف عام ، وكان لهذه الحوادث أثر كبير في الشعب ، ولكنها لم تجدد صدى في نفوس الناس وقت حدوثها بحيث يسطرون وقائعها أولا بأول ، غير أن بعض الذين شاهدوها لم يستطيعوا نسيانها فكتبوا عنها فيما بعد مثل ما حدث تماما عند سقوط روما . ففي مثل تلك الأيام السوداء ينصرف المفكرون عن الانشغال بالزخرف الخارجي ويحصرون تأملاتهم في القيم الداخلية للنفس الإنسانية بعد أن يتضح لهم عبث الاعتماد على الماديات . فقد كان ملوك مصر في عصر الأهرام يعتمدون على الماديات ، وقضوا قرونا عديدة يكافحون لينتصروا على الموت بإقامة أهرامهم العظيمة وعمل الاحتياطات الكبيرة لصيانة جثثهم ، ولكن هاهم يرون الأهرام ومقابر وجهاء البلاد تحت رحمة الفوضى وكيف بدأت تهدم . وكلما تقدمت الأيام وظل الناس في فوضى اقتنع هؤلاء المفكرون أن لا فائدة من هذه الحياة المادية الفانية .

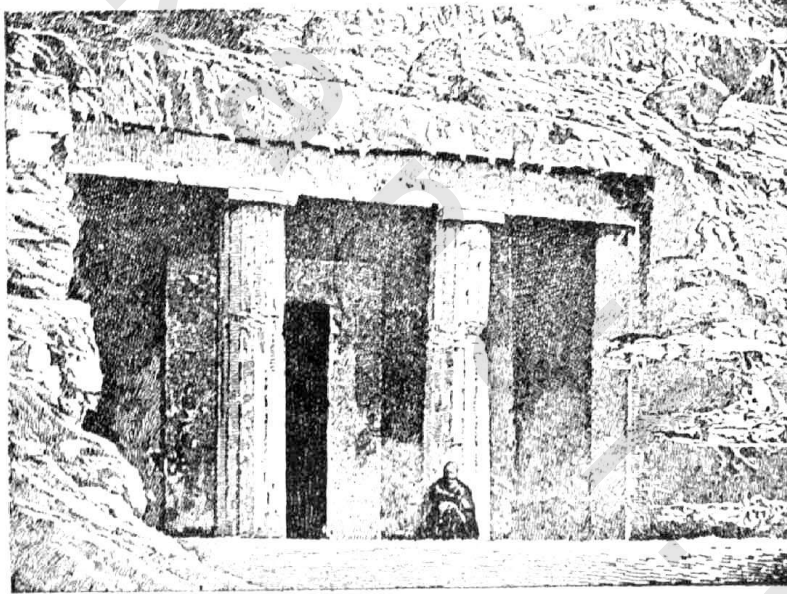
وبعد أن انتهى عصر الاتحاد الأول رأى الحكماء المصريون ما وصل إليه حال البلاد من الانهيار ، وحرك أشجانهم ما رأوه من انتهاك حرمة قبور أسلافهم وتركها

١ - فصلت تغيير (feudal age) أي العصر الانقطاعي إلى عصر الفترة الأولى (first intermediate period) والدولة الوسطى لأن ذلك هو المستعمل الآن في جميع كتب التاريخ الحديث . وعدل المؤرخون بالاجماع عن استعمال تغيير العصر الانقطاعي لأنه لا يستدل به في الوثائق القديمة ولم يكن في مصر يوما من الأيام نظام يشبه العصر الانقطاعي المعروف في تاريخ أوروبا (المغرب)

دون عناية، فأخذوا يتأملون فيما عساه أن يكون قد نفع هؤلاء الأسلاف ما اتخذوه من احتياطات وما أنفقوه على تلك المقابر وما أوقفوا عليها من أموال . نحن نعرف أن بعض الشكوك بدأت تفسح لنفسها مكاناً في نفوس بعض الناس في عصر الأهرام فأخذوا يتساءلون عن مدى فائدة تلك الاحتياطات المادية ومدى تأمينها لخلود النفس ، ولكن عندما يرى الناس هذه الآثار العظيمة وقد أصبحت خرائب ، فإن الشك يتحول إلى الحاد وانكار، ولم يمض وقت طويل حتى وجد هذا الاتحاد طريقة إلى الكتابات الأدبية .

وظلت مصر ألف سنة يسودها نظام وطني يمثلها الملك ويحافظ عليه، ولكن في الوقت الذي تداعى فيه هذا النظام وانهارت أركانه انكشفت مواطن الضعف للأجانب وبدأوا يغزونها ويتدفقون على الدلتا من ناحية الشرق آتين من آسيا ومن ناحية الغرب من ليبيا، فعمت الفوضى ووقف دولا العمل الحكومي ؛ ونقرأ فيما خلفه أحد الحكماء : دورى الناس مالفات القوانين والمحاكم على الأرض وداسوا عليها في الأماكن العامة ، وأخذ عامة الناس يفتحونها في وسط الطريق ، ووقف التعامل الاقتصادي وتغيرت الأوضاع الاجتماعية تغيراً تاماً ، وعفت الأيام على القيم الأخلاقية التي اعتبرها الناس مثلهم العليا ، تلك القيم التي وصلت إليها الإنسانية بعد ألف سنة تقريباً وجاءت نتيجة للحياة المنظمة، وظن القوم إنها خالدة. وكان هذا الانهيار الاجتماعي أقدم النكبات التي وصلت إلينا أخبارها مدونة بعد أن كتبها بعض من عاشوا في تلك الأيام ، وأدركوا تمام الإدراك ما أصاب المجتمع من انهيار. وعرفوا العواقب الوخيمة التي يمكن أن تصيب البلاد من جراء الفوضى في حكم البلاد ، وكانوا يحملون بتغيير الحالة وتحسن الأيام . وكان بعضهم يؤمن بأن عصرًا جديدًا سيبدأ عندما يتولى الأمر جيل من الموظفين العاديين ذوي الأمانة ، بينما آمن البعض الآخر أن هذا العصر الجديد يمكن أن يحىء على يد ملك عادل ينقذ الناس

ويعيد تنظيم المجتمع . وكان الفريق الأول يرى أن علاج الحالة يمكن أن يتم بتطبيق العدل والمبادئ الاجتماعية السليمة في الحياة اليومية على أيدي طبقة الموظفين ، ونرى هذا المعنى واضحا فيما كتبه ملك مجهول عاش في ذلك العهد المظلم الذي جاء بعد سقوط عصر بناء الأهرام ضمن نصائحه لولده : « إن الرجل المستقيم الذي يقيم العدل خير من ثوره الذي يسبب الأذى » وها هو كاتب من الفريق الثاني ويدعى « نعزروهو » يصف ما آلت إليه حالة البلاد من سوء ويتنبأ بمجىء ملك يخلص الناس ناهم فيه ويسمى هذا الملك « أميني » وهو اختصار لاسم امنمحات الذي لاشك أنه



شكل : ٢٣ - مقبرة منحوتة في الصخر لاحد الكبراء من عصر الدولة الوسطى

ليس هذا القبر مبنيا بالحجر مثل مقابر عصر الاهرام وانما هو منحوت في صخر الجبل . وفي داخل الهيكل الذي يوصل اليه الباب الظاهر في الصورة مناظر ملونة تشبه مناظر مقابر عصر الاهرام كما نجد هناك أيضا كثيرا من الكتابات . ويقص علينا صاحب هذا القبر كيف كان يحسن معاملة الناس . فيكتب على أحد جدران مقبرته « لم أسئ الى فتاة من بنات الفقراء ، ولم أظلم أرملة . ولم يحدث أننى طردت فلاحا أو أخرجت راعيا من عمله . لم يكن هناك بائس فى رعاياي ولم يجمع أحد فى عهدي . ولما حلت سنوات القحط حرثت جميع الحقول فلم يبق جائع بين الناس وأعطيت الارملة مثل ما أعطيت المرأة ذات البعل . ولم أميز غنيا على فقير فى أى شئ منحتة »

هو « امنمحات الأول » مؤسس الأسرة الثانية عشر الذى نظم حالة مصر حوالى سنة ٢٠٠٠ ق . م . والذى قيل عنه بعد ثلاثة أجيال من وفاته إنه « طرد الظلم بعيداً لأنه أحب العدل كثيراً » .

ورأى المنتهون أن حلهم قد تحقق عندما تولى امنمحات الأول عرش البلاد . ولكن ما الذى حدث للفريق الأول الذى كان لا يرى أملاً فى انقاذ البلاد إلا على أيدى أجيال من الموظفين الصالحين ؟ فى الواقع أن كلا الأمرين مرتبطان لأن حكم الملك الصالح لا يمكن أن يكون مشمراً إلا إذا قام على اكتاف موظفين صالحين ينفذون سياسته . وبذل امنمحات « الصالح » كل ما وسعه من جهد ليعيد المثل العليا القديمة ولكنه لم يتمكن من إخضاع أمراء الأقاليم إخضاعاً تاماً إذ ظل لهم الكثير من حقوقهم القديمة واستقلالهم ، شأنهم فى ذلك شأن الأمراء الاقطاعيين فى العصور الوسطى بأوروبا ، وهذا هو مادعا بعض الكتاب لتسمية هذا العصر فى بعض الأحيان بعصر الاقطاع فى مصر .

الأدب والعلم في عصر الفترة الأولى والدولة الوسطى

كانت هذه الفترة في تاريخ مصر من العصور الزاخرة بالآثار الأدبية التي وصل إلينا منها قطع كانت في يوم من الأيام ضمن مكتبات أمراء الأقاليم . فقد عني هؤلاء الناس بجمع الكتب ، وكانت على هيئة ملفات من البردى تلف بعناية وتختتم ثم توضع داخل أواني من الفخار وتصف على رفوف المكتبات . ولو تسنى لأحد أن يمسك بيده بعض هذه الأواني ويفتحها ويفحص ما فيها ، فإنه لا يرى فيها فقط ما يثبت فوضى المجتمع وآلام الفقراء والضعفاء ولكنه يرى بينها أيضا أقدم كتب القصص في تاريخ العالم ، مثل قصة أسفار ومغامرات « سنوحى » ، فهي قصة مصرية في آسيا شبيهة بمغامرات « أوديسيوس » في الأدب اليوناني ، أو قصة البحار الغريق الذي غرقت سفينته عند باب ذلك المحيط المجهول الذي يبدأ بعد نهاية البحر الأحمر . وفي هذه القصة قصة مغامرات بطل من أبطال البحر نرى فيها صورة سالفة لقصة « السندباء البحري » . ومن بين تلك الكتب أيضا قصص عجائب قام بها حكماء وسحرة في أعمال تشبه ما قام به النبي « موسى » ورجال فرعون بعد ذلك بأكثر من ألف وخمسمائة عام .

ولو أننا قارنا تطور الحضارة في عصر الفترة الأولى بما كان عليه الحال في عصر الأهرام لوجدنا كثيرا من التغيرات الأساسية ، فقد كان من مميزات عصر بناء الأهرام الازدهار المعجز الجبار في البناء وفي الفنون ، كما امتاز أيضا بجعل الأخلاق أساسا يقوم عليه صرح الحياة الإنسانية ، فلما جاء عصر الفترة الأولى حاول المفكرون الاجتماعيون أن يقيموا فوق الأساس القديم بناء آخر ؛ فرأوا أن الضمير لا يُصلح الأخلاق لحسب ، بل أنه قادر على أن يجعل من الأخلاق قوة اجتماعية ، وكان لهذا التقدم في التفكير أثر كبير على الديانة . لقد نظر الناس إلى آلهتهم في

عصر الفترة الأولى على أنهم أكثر من حاكين مسيطرين على دنيا الطبيعة ومسيرين للشمس والقمر أو الأرض والماء . وبدأ المصريون في ذلك العهد يعتقدون أن آلهتهم كانوا أيضا كائنات عليا في دولة فيها حق وفيها باطل، وأن كل إنسان كان مسئولا أمامهم عن تصرفاته ، وأن روح كل إنسان ستسأل في الحياة الأخرى عما فعلته في الحياة الدنيا .

وهنا نرى للمرة الأولى في حياة هذا الإنسان أنه بدأ يترك الصراع مع القوى الطبيعية والمادية ، وأخذ يرتفع بنفسه ويتقدم نحو مثل خلقية عالية ، وكان هذا التقدم أهم وأعظم ما وصل اليه الإنسان في حياته ؛ وكان الأساس الذي مهد لأشياء أساسية في حضارته مثل معرفته استعمال النار أو استخدام المعادن . ومن بين هذه الآثار الأدبية قصة « أوزيريس » التي سطرت على الأرجح في عدة ملفات ، وكانت مسرحية دينية صوروا فيها حياة « أوزيريس » ثم موته وبعد ذلك دفنه ثم بعثه . وكانت هذه المسرحية تمثل أثناء عيد يقام كل سنة . وكان الناس يقبلون عليها اقبالا كبيرا ويقومون بدور فيها ، وهذه المسرحية هي أقدم ما عرفه العالم عن التمثيل الديني ، وكان تمثيلها يستغرق بضعة أيام .

وبما كشفت عنه حفائر الآثار قطع من بردية كتبت فيها مسرحية من النوع الذي يحتاج أدائه إلى تسيير المواكب ، ونجد فيها اجزاء من أحاديث بين شخصين وفيها توجيهات المخرج وفيها بعض المناظر ، ويرجع تاريخ هذه البردية إلى القرن السادس عشر أو السابع عشر قبل الميلاد ، ويمكننا أن نقول عنها أنها ربما كانت أقدم كتاب مصور في العالم .

ومن بين ما وصل إلينا من هذه البرديات ، ملفات تحوى أغنيات وقصائد شعرية مثل ذلك النشيد الجميل الذي كان يغنيه رجال البلاط يحيون به الملك في كل صباح ، وكان هناك نشيد آخر في مدح الملك يغنيه فريقان يرد أحدهما على الآخر

في أيام الاحتفالات الكبرى في البلاط ، وهذا النشيد مكتوب في سطور متماثلة تشبه مثيلاتها في المزامير عندما كتبت باللغة العبرية ، وهي أقدم ما وصل إلينا من أنواع الشعر .

وما يدعو إلى الدهشة أن كثيرا من هذه القراطيس البردية التي كتبها المصريون في ذلك العهد البعيد بينها بعض ملفات في مبادئ العلوم ، وأهم هذه البرديات ، بردية « إدوين سميث » ، « Edwin Smith Papyrus » وهي نسخة نقلها كاتب في القرن السابع عشر قبل الميلاد عن نسخة أقدم منها ، وهي بلا نزاع أقدم مؤلف صحيح ، لأننا نقرأ فيه لأول مرة كيف يحاول العقل الانساني أن يميز الحقائق ويسجلها ثم يستخلص منها النتائج على ضوء الحقائق التي لاحظها ، فهي دراسة عن الجراحة وعن الطب الظاهري تبدأ من أعلى الرأس ثم تتناول الجسم جزءا جزءا ، ولكن لسوء الحظ لم تصل إلينا هذه البردية كاملة . وينتهي الجزء الذي لدينا عند الحالات التي تتناول الصدر وأعلى السلسلة الفقرية . وللأسفة الأولى في تاريخ العالم نقرأ بعض الملاحظات عن مخ الإنسان ، بل أن كلمة « مخ » تظهر في هذه البردية لأول مرة في مخطوط . ويمكن ذلك الجراح المصري الذي ألف هذه الوثيقة من معرفة أن المخ هو الذي يتحكم في أعصاب الأعضاء المختلفة ، وأوضح لنا نوعا من التحقيق العلمي عن وظيفة المخ لم يصل إليه الباحثون إلا منذ عهد قريب . واكتشف ذلك الطبيب أيضا أن القلب هو القوة المحركة للنظام في الجسم ، وهو في الوقت ذاته مركز هذا النظام ، ولكن هذا الاكتشاف لا يعني أن ذلك الطبيب عرف أسرار الدورة الدموية . وما يدهشنا أيضا أنه ورد للمرة الأولى في مؤلفات الطب ذكر الخياطة الجراحية في تلك البردية .

وهناك ملفات فيها قواعد الحساب قائمة على الأساس العشري الذي مازلنا نستعمله في حياتنا إلى الآن . فيها مبادئ الجبر والهندسة ، ونحن لا نملك أنفسنا من الإعجاب

عندما نقرأ في أمثال تلك البرديات الشيء الكثير عن هندسة المسطحات، ونرى كيف عرف هؤلاء الرياضيون الأوائل قواعد لحساب مساحة الثلث على وجه دقيق أو المربع المنحرف أو الدائرة التي حسبوها على أنها تربع ثمانية أضع القطر، وعرفوا أيضا قيمة النسبة التقريبية (ط — II) وهي في حسابهم $3\frac{1}{4}$ ، وهي نتيجة قريبة إلى حد مدهش من قيمتها الصحيحة. فإذا ما وصلنا إلى هندسة المجسمات نرى في تلك البرديات الرياضية طرق حساب عدد كيالات الجيوب التي توضع في صومعات خلال اسطوانية تختلف ارتفاعاتها وأحجامها، وشرحوا أيضا كيف يحسب الإنسان كتلة هرم مربع الأضلاع، علما بأن طريقة حل هذه المسألة لم تعرفها أوربا إلا بعد ذلك التاريخ بثلاثة آلاف عام، وكان الناس قد نسوا طريقة قدماء المصريين حتى ظهرت أخيراً ترجمة إحدى البرديات فكشفت عنها.

وتمكن المصريون أيضا من عمل أرصاد للأجرام السماوية بآلات بسيطة، ولكن هذه المدونات لم تصل إلى أيدينا مثلها في ذلك مثل المدونات الجغرافية. ومع هذا فإننا نعرف أنهم عرفوا كيف يميزون بين الكواكب وبين النجوم الثوابت ولكنهم لم يصلوا إلى معرفة نظام سير الكواكب في السماء، وليست أشكال الأبراج الاثني عشر في الدائرة الفلكية مصرية الأصل.

حكام مصر في عصر الفترة الأولى والدولة الوسطى

يرجع الفضل في تقدم الآداب والعلوم في عصر الفترة الأولى والدولة الوسطى إلى الحياة الرغدة المتنوعة التي عاشها الناس في ذلك الحين، كما يرجع الفضل فيما أحرزته البلاد من تقدم اقتصادي إلى أسرة الملك امنمحات التي قامت بأعمال رفعت كثيراً من مقدرة مصر في الإنتاج إلى حد لم تعرفه من قبل . فقد أقام ملوك هذه الأسرة جسوراً عظيمة وبنوا خزانات كبيرة ليملاؤها بمياه النيل ثم يستعملوها بعد ذلك في شئون الري ، ولذلك زاد دخل الأراضي وعم الرخاء .

واهتم هؤلاء الملوك بتسجيل ما وصل إليه النيل في فيضانه من ارتفاع، ونقشوا علامات تدل على ذلك المستوى من عام إلى عام على الصخور في منطقة الشلال الثاني . أى أن المصريين كانوا يفعلون قبل أربعة آلاف سنة ما لم تفكر حكوماتنا المتعاقبة في عمله إلا منذ وقت قريب عندما قامت هذه الحكومات بعمل مشاريع للري لاستصلاح الأراضي غير المزروعة .

وأظهر ملوك ذلك العهد همة وقوة في تنظيم الحكومة لأن ذلك كان ضرورياً للحد من سلطة حكام الأقاليم وإخضاعهم لنفوذ الملوك .

وأعدوا كشوف التعداد للمساعدة في جباية الضرائب . وقد ألفت الأيام على بعض هذه الكشوف فوصلت سالمة إلى أيدي علماء الآثار ، وكان من بين أعمال الملوك في عهد الدولة الوسطى أنهم بدأوا تنظيم جيش صغير دائم ، وربما كانت هذه هي المرة الأولى لوجود جنود محترفين في تاريخ مصر . وكان على هؤلاء الجنود حراسة القصر والحصون التي أنشأها الملوك من بلاد النوبة حتى حدود مصر الآسيوية .

ولعب هذا الجيش دوراً هاماً في الحروب . وكان الملك يعتمد أيضاً على الجنود الذين يرسلهم له حكام الأقاليم ليكونوا تحت تصرفه عند إرساله الحملات للقيام بأعمال حرية سواء في الشمال أو في الجنوب . فقد أغرم أمنمحات الأول ومن خلفه من الملوك بإرسال مثل هذه الحملات الحرية . وكان من نتيجتها أن وصلت حدود مصر الجنوبية إلى الشلال الثاني ، أى أنهم أضافوا أكثر من ثلاثمائة كيلو متراً من نهر النيل إلى بلادهم ، وبنوا كثيراً من الحصون الحرية في تلك المنطقة لحماية البلاد من خطر القبائل النوبية ، وما زلنا نرى بقايا تلك الحصون القوية ، وكثيراً ما بعث هؤلاء الملوك بغزوات إلى سوريا وفلسطين ، وإن كان هناك شك في أن الآسيويين الذين كانوا يعيشون في مدن الشاطئ الشرقي للبحر الأبيض المتوسط لم يخضعوا للحكم المصري ، فإنه من المؤكد أن هذه البلاد كانت داخلة في دائرة نفوذ مصر ، ويدل على ذلك وجود أسماء ملوك هذه الأسرة مرات كثيرة على الآثار التي ظهرت في الحفائر في البلاد المختلفة الواقعة على هذا الشاطئ .

وبذل ملوك ذلك العهد مجهوداً كبيراً لإنماء ثروة البلاد ، فحفروا قناة بدأت عند الطريق الشمالي للبحر الأحمر متجهة غرباً إلى أن وصلت إلى أقرب فرع من فروع النيل في شرق الدلتا ، وبذلك تيسر للسفن المصرية في البحر الأبيض المتوسط أن تدخل هذا الفرع الشرقي من فروع النيل في الدلتا إلى أن تصل إلى تلك القناة ثم تسير فيها متجهة نحو الشرق حتى تدخل البحر الأحمر ، وبعبارة أخرى فإن هذه القناة وصلت البحرين الأحمر والأبيض قبل أن تظهر قناة السويس إلى عالم الوجود بأربعة آلاف سنة .

وكان وصل هذين البحرين وإنشاء تلك القناة هاماً لمصر مثل أهمية قناة بناما للولايات المتحدة الأمريكية ، ويمكن الأسطول المصري القديم من أن يسافر إلى بلاد بعيدة ، فكان يصل إلى جزر بحر إيجه وإلى سوريا في الشمال وإلى بلاد

الصومال ومدخل المحيط الهندي في الجنوب حيث كانت تلك السفن تذهب إلى بلاد بونت . وتراعت تلك البلاد النائية للبحارة المصريين كأنها آخر أطراف الأرض ، وكانت قصصهم التي شحنتها بأخبار مخاطرهم مبعث عجب من كانوا يستمعون إليهم بعد عودتهم .

ومهد حكم عائلة امنمحات لمصر أن تتبوأ مكان الصدارة في العالم القديم ، ولكن لم يمض على عام ١٨٠٠ ق . م إلا وقت قصير حتى تضاعف نفوذ الملوك فجأة وجاءت النهاية المحزنة على يد غزاة أجانب . هؤلاء الغزاة هم الهكسوس الذين جاءوا من آسيا فاحتلوا مصر وقضوا على استقلالها .

تأسيس الإمبراطورية

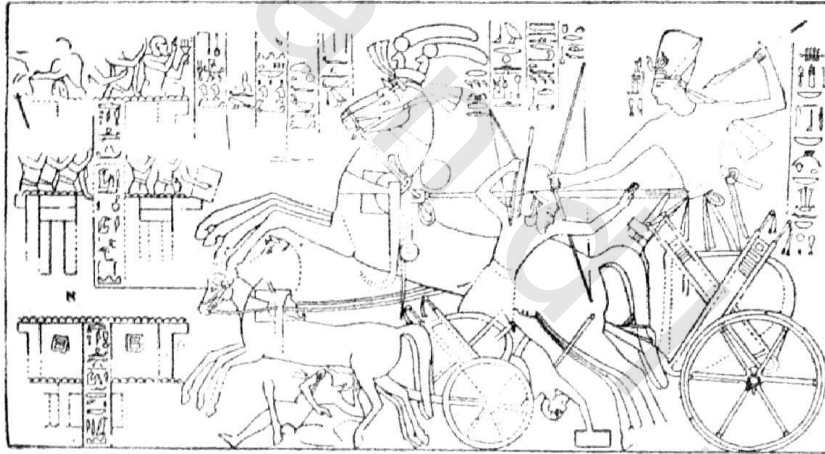
استمرت سيادة الهكسوس في مصر ما يقرب من مائة سنة ، ومن المحتمل أن بعض الأمراء المصريين كانوا يحكمون أقاليمهم في بعض الجهات ولكنهم كانوا دون شك خاضعين لملوك الهكسوس . وفي أوائل القرن السادس عشر قبل الميلاد ثار أمير طيبة على هؤلاء الأجانب وانتهى الأمر بإخراجهم من البلاد . وأعاد قاهر الهكسوس تنظيم الحكومة وجعل طيبة عاصمة الملك ، في المكان الذي تقوم فيه الآن مدينة الأقصر ، ولهذا فإن الباحث عن تاريخ الإمبراطورية المصرية يحصل على ما يريده عند دراسته لما بقي من آثار ذلك العهد المجيد هناك في تاريخ مصر (١) .

وآثار الأقصر غنية جداً بنقوشها وما على جدرانها من مناظر مرسومة ، وأمامها في الناحية الغربية من النيل مئات المقابر نحتت في جوانب الصخر ودفن فيها ذوو النفوذ ممن عاشوا في عصر الإمبراطورية وتركوا على جدران هياكلها فصولاً كاملة لتاريخ البلاد وحضارتها ، وعلى جدران المعابد الفخمة في الناحيتين

١ - يقسم المؤلف تاريخ مصر الى ثلاثة عصور اولها عصر الاهرام وفي رايه الاصلى انه يبدأ من القرن الثلاثين ق.م. حتى القرن الخامس والعشرين وثانيها العصر الاقطاعي ويصل الى أوج ازدهاره حوالي ٢٠٠٠ ق.م. وثالثها عصر الإمبراطورية من ١٥٨٠ - ١١٥٠ ق.م. ولكن الغالبية العظمى من علماء الآثار تفضل أن تبدأ عصر بناء الاهرام - أي الأسرة الثالثة في القرن الثامن والعشرين قبل الميلاد ونقسم التاريخ المصري الى ست عصور وهي :

- ١ - العصر العتيق (الأسرتين الأولى والثانية)
 - ٢ - ثم الدولة القديمة
 - ٣ - عصر الفترة الأولى
 - ٤ - الدولة الوسطى (وتبدأ حوالي سنة ٢١٠٠ ق.م. بالأسرة الحادية عشر)
 - ٥ - عصر الفترة الثانية
 - ٦ - وأخيراً الدولة الحديثة من الأسرة الثامنة عشر حتى نهاية الأسرة العشرين
- أما باقي الأسرات أي من الواحدة والعشرين حتى نهاية الأسرة الثلاثين فإنها تسمى بأسماء أخرى .
(العرب)

الشرقية والغربية من النيل نرى المناظر التي تمثل مواكب المجد في ذلك العصر ، ونرى فيها مناظر المعارك الحربية التي خاض غمارها ملوك مصر المحاربون ، وبستلقت أنظارنا فيها الملوك وقدر سموا بحجم كبير يقودون عرباتهم الحربية وقد تفرق أعداؤها مذعورين أمام جوادى عربته . وكان الجواد جديداً على مصر ولم يره أحد ممن عاشوا في عصر الأهرام أو في الدولة الوسطى ، ولكن بعد انتهاء تلك الفترة بدأ المصريون يستوردون الخيل من غرب آسيا حيث عرفها الناس هناك قبل ذلك الوقت بنحو خمسمائة عام على الأقل . وعرف المصريون أيضاً العربات وعندما أتقن أهلها فنون الحرب على نطاق واسع بعد طردهم للهكسوس ، بدأوا عهداً جديداً في تاريخهم فسيروا الجيوش وكونوا أمبراطورية كبيرة .



شكل : ٣٤ - أحد ملوك الامبراطورية فوق عربته الحربية

الملك رمسيس الثاني بعد انتصاره على الاسيويين الذين كانوا في الحصنين اللذين على يسار الصورة . وكان الاسيويون يطلقون لحاهم كما نراهم في الصورة . واذا فحصنا رسم الملك نراه قد ربط أعنة الخيل في وسطه لتبقى يديه طليقتين وقد أمسك باحدى يديه زعيما اسيويا كان يركب عربته ورفع حربته القصيرة في يده اليمنى ليطعنه . وهذا الرسم جزء من سلسلة مناظر طولها نحو ٥٢ مترا مرسومة على الحائط الخارجي للبهو الكبير في معبد الكرنك - وكانت هذه المناظر منقوشة على الحجر وملونة بألوان زاهية أعطت للمبنا روعة وجمالا وكان لها في الوقت نفسه الاثر المطلوب في نفوس من يراها من الشعب ، فيعرفون بطولة ملكهم . ولم يبق للون أثر في أكثر هذه المناظر كما تأثرت الرسوم نفسها وتهشمت أجزاء كثيرة منها

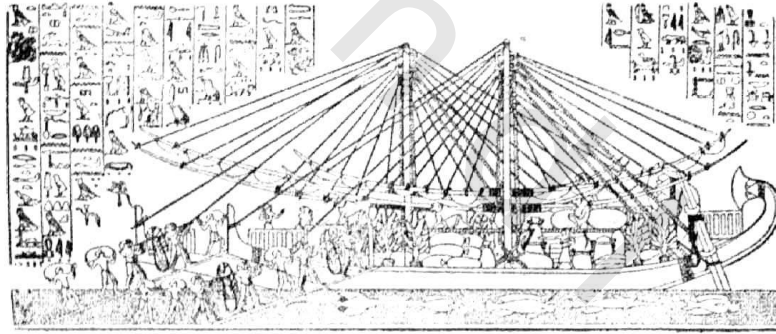
وأصبح الفراعنة قواداً لجيوشهم التي أحسنوا تنظيمها وخاصة فرق الرماة بالقوس والسهم وفرق العربات ، ولازمهم النصر فكونوا أمبراطورية امتدت من شاطئ الفرات في آسيا إلى الشلال الرابع في أفريقيا .

وكانت الأمم في العصور القديمة تبدأ في جميع المدن والأمارات الصغيرة لتكون منها مملكة واحدة توحد إدارتها ، ولكن التطور الجديد في حياة البشرية جعل هذه الشعوب المختلفة تتجمع في امبراطورية واحدة ضمت جزءاً كبيراً من الشرق الأدنى القديم ، وظلت هذه الامبراطورية من القرن السادس عشر حتى منتصف القرن الثاني عشر قبل الميلاد أى أكثر من أربعمائة سنة .

وكان معبد الكرنك أعظم مباني طيبة وقد زاد في مبانيه الملوك الذين حكموا في الأسرات المختلفة حتى أصبح سجلاً جامعاً تقرأ فيه تطور الامبراطورية في تاريخها وقها ودينها . ويرى الزائر بهو الأعمدة الكبير ويرى خلفه مسلة عظيمة من حجر الجرانيت من قطعة واحدة ارتفاعها أكثر من ثلاثين متراً أقامتها الملكة حتشبسوت أول امرأة عظيمة في تاريخ العالم ، وكانت هذه المسلة واحدة من اثنتين أحضرهما معماريو هذه الملكة من صخور الشلال الأول ، وكان قطعهما ونقلهما ووضعهما في مكانهما عملاً مجيداً . لم تكن الملكة حتشبسوت محبة للحرب ، ولم تخرج على رأس الجيش ، ولكنها وجهت عنايتها لإقامة المباني العظيمة وتوسيع نطاق التجارة الخارجية . فان هذه الملكة كانت في حاجة إلى بعض أشياء كإلية لمعابدها ومقبرتها فأرسلت حمله إلى بلاد بونت ^(١) سجلت مناظرها على أحد جدران معبدها الفخم الذي ينتهى في الناحية الغربية من النيل حيث عثرت بعثة متحف المترو بوليتان في نيويورك عندما كانت قائمة بحفائرهما لتنظيف هذا المعبد على كثير من بقايا رسومها

١ - لم تكن بلاد بونت قاصرة على الشاطئ الأفريقي أى في مكان بلاد الصومال فقط بل كانت تطلق على الشاطئ الآسيوى أيضاً وكانت بلاد بونت تشمل المنطقة الواقعة حول بوغاز باب المندب في ناحيته أى الصومال وجنوب الجزيرة العربية . (المغرب)

وتماثلها على طول الطريق الموصل إلى الهيكل ، كما عثرت أيضاً على معالم البرك التي كانت في الصالة السفلى في المعبد ، ولكن هذه الأشياء التي ساعدتنا على فهم تاريخ تلك الملكة ومعرفة أعمالها أتنا رغما عن معاصريها الذين أرادوا محو ذكراها من الوجود ، ولكن الأحجار الصامتة في معبد الكرنك لم تلزم صمتها إلى الأبد بل حدثنا عن كثير من الأسرار وكشفت لنا نقوشها التي أرادوا إخفاءها عن كثير من أعمالها لأن أعداءها أقاموا مبنى حول قاعدة هذه المسلة ليخفوا نقوشها عن الناس . أراد تحوتمس الثالث بعد أن تولى العرش أن يمحو تلك الذكرى التي كان يكرها فشن على آثارها حرباً وأصدر أمره إلى العمال ليذهبوا إلى معبدها في غرب طيبة ليحطموا أكثر من مائة تمثال لتلك الملكة أقامتها فيه لتجمله كما حطموا أيضاً إسمها أينما عثروا عليه وحطموا أسماء جميع من عاونوها من الرجال ومن بينهم



شكل : ٣٥ - جزء من أسطول الملكة حتشبسوت في بلاد بونت

كان أسطول الملكة حتشبسوت إلى بلاد بونت مكوناً من خمس مراكب نرى في هذا الرسم اثنين منها وقد رسا الاسطوال على الشاطئ ، وطويت القلوع وأخذ الملاحون بعد أن مدوا « السقالات » يحملون البضائع لشحنها وأخذ بعض هؤلاء الملاحين يعاكس قرداً جلس على ظهر المركب . وتتحدث النقوش قائلة « تم تحميل المراكب بجميع الأشياء الجميلة في بلاد بونت والاششاب العطرية من أرض الاله (أى بلاد العرب) وأكوام من البخور الجاف ، وأشجار البخور ، وكذلك الابنوس والعاج وذهب بلاد « امو » الأخضر ، وخشب القرفة ، وخشب الخسيت ، ونوعين من أنواع البخور ، والكحل ، والقروود والنسانيس والكلاب وجلود الفهد الجنوبي وكذلك بعض الاهالى وأطفالهم . ولم يحدث أن جىء إلى ملك من الملوك بمثل هذه الأشياء منذ بدء الخليقة » . وهذا المنظر منقوش على أحد جدران معبد هذه الملكة في طيبة .

ذلك المهندس الذى أقام مسلاتى الكرنك ، ولكن الجدران التى بناها رجال تحوتمس الثالث حول قاعدتى المسلتين تهدمتا الآن وأصبح فى استطاعتنا أن نقرأ النقش المسطر عليها وعرفنا منه الكثير عن أعمال حتشبسوت .

وإذا رأى بعض الناس فيما فعله الملك تحوتمس الثالث أمرا كان يحسن تجنيبه فان ذلك لا يؤثر قليلا أو كثيرا فى الحقيقة المعروفة وهى أنه أول قائد حربى عظيم فى التاريخ وأنه أعظم ملوك مصر المحاريين ، ولهذا نسميه نابليون مصر . حكم أكثر من خمسين عاما منذ حوالى عام ١٥٠٠ ق. م - عام ١٤٤٧ ق. م. ونقرأ على أحد جدران معبد الكرنك أخبار حروبه فى مدى عشرين عاما حطم خلالها مدنا وممالك فى غرب آسيا ثم كون منها أمبرا طورية ثابتة الأركان . وبنى تحوتمس الثالث أول أسطول حربى كبير مكنه من بسط نفوذه على بحر إيجه .

وجاء بعده ملوك فاتحون آخرون ولم تبدأ قوتهم فى الانحلال إلا بعد مضى قرن من الزمان على وفاته .



شكل : ٣٦ - تمثال للملك تحوتمس الثالث نابليون مصر ومقارنته بموميائه
نرى فى أ تمثالا من الجرانيت لذلك الفاتح العظيم ويمكننا أن نقارن ملامح وجهه بموميائه . ونرى فى الخطوط الجانبية للآثنين فى ب أن التشابه تام وأن الفنان المصرى القديم أجاد فى النحت أجادة تامة فى ذلك العصر

حياة الرفاهية في أيام الإمبراطورية

تدفقت الأموال على مصر آتية من آسيا ومن بلاد النوبة فساعدت هذه الثروة على وجود عهد يمتاز بالفخامة والقوة لم تعرف الدنيا له شبيها من قبل ، ووضح أثر هذا العهد وبخاصة فيما تركه من مبان فخمة رحية . فزى مثلاً في معبد الكرنك القاعة الكبرى المعروفة باسم بهو الأعمدة ، فهي أعظم ما أقامه الانسان ، وارتفاع الأعمدة التي في الجزء الأوسط منه ٦٩ قدماً ويستطيع مائة شخص أن يقفوا مجتمعين فوق تاج أى عامود منها . وتطورت نوافذ الضوء بعد أن كانت فتحات ضيقة في عصر الأهرام فقد أصبحت الآن نوافذ مرتفعة جميلة الشكل ، نرى فيها الأصل الذى أخذ عنه مهندسو الكنائس من طراز البازيليكا فيما بعد .

وكانت معابد طيبة في أيام الإمبراطورية معابد فخمة تحيط بها حقول ملأى بأشجار النخيل ، وقامت أمامها المسلات وتمائيل الفراعنة ، وكان كل شئ دقيق الصنع ملوناً بألوان زاهية جذابة وكانت بعض الأجزاء من هذه المباني مغطاة بصفائح من الذهب أو الفضة تذهل الأبصار بضيائها وتنعكس صورتها في مياه بحيرة المعبد ، فإذا ما دلف الزائر إلى داخلها وجد نفسه في ردهة متسعة تضيئها الشمس وتحيط بجوانبها البوابة المقامة فوق الأعمدة ، ولكن هذا الزائر العادى لا يستطيع أن يتقدم أكثر من ذلك . إنه يلقى بصره إلى الأمام فيرى أبهاء أخرى ولكن تلك المباني كانت بالنسبة إليه مليئة بالأسرار .

وكانت هناك معابد مختلفة توصل بينها طرقات طويلة صفت على جوانبها تمائيل من الحجر من الطراز المعروف باسم « أبو الهول » وكانت هذه المباني



شكل : ٣٧ - الأعمدة الضخمة في الجزء الأوسط من القاعة في معبد الكرنك

وطرقاتها مجموعة عظيمة جعلت من طيبة مدينة تعد من أعظم مدن^(١) العالم القديم . وكسبت لها صيتاً بعيداً بأنها أعظم المدن وأكبرها ، أعظم المدن التي بناها الإنسان وكانت مقامة على نظام متجانس جعلها كلها كأنها مبنى واحد فخم واسع الأرجاء .

ويعود الفضل الأكبر في تقدم العمارة المصرية إلى كل من المثال والرسم فقد لونوا الأعمدة ذات التيجان الزهرية بألوان تماثل ألوان النباتات الأصلية ، كما لون الرسامون مناظر الحرب بألوان زاهية براقية ، وقامت تماثيل الملوك أمام المعابد ، وكان بعضها عظيم الحجم إلى درجة تفوق ارتفاع صرح المعبد نفسه ، وكان يراها الناس من مسافة أميال ، وكان في مقدرة المثاليين أن يصنعوا مثل هذه التماثيل الضخمة من قطعة واحدة من الحجر بالرغم من أن ارتفاعها ثمانون أو تسعون قدماً ووصل وزن بعضها إلى ألف طن . وفي محاجر أسوان مسلة لم ينته العمل منها وتركت ملقاة في مكانها ، يبلغ ارتفاعها مائة وسبعة وثلاثين قدماً ، ولو قدر لها أن تستخرج من مكانها لبلغ وزنها أكثر من ١١٠٠ طن . وقد استطاع مهندسو العصر الإمبراطوري نقل كثير من أمثال هذه الأحمال الثقيلة إلى مسافة تبعد مئات الأميال من أماكنها دون أى قوة غير القوة الإنسانية . ونرى في أمثال هذه الأعمال ما أحرزه قدماء المصريين من التفوق العظيم وفاقوا بذلك غيرهم من الشعوب .

ويقوم في طيبة على الشاطئ الغربى للنيل تماثلان كبيران للملك أمنحوتب الثالث أعظم الأباطرة المصريين حباً للترف والفخامة ، ونرى خلفهما الجبل الذى نحتوا في جوانبه مئات الهياكل لمقابر ذوى الأهمية من رجال الإمبراطورية .

وهنا يرقد كبار القواد الذين رافقوا الملوك في حروبهم في آسيا وفى بلاد النوبة ، وهنا دفنوا أيضاً المهندسين المعماريين والفنانين الموهوبين الذين أقاموا المباني التي أشرنا إليها وجعلوا من طيبة أفخم المدن في العالم القديم .

١ - عرفت أوروبا في تخطيط المدن وتنظيمها على أنها وحدة متجانسة متوازنة ولكن ذلك لم ينتشر في أمريكا بعد ، ولم يبدأ فيها هذا النوع إلا من عهد قريب .

وعلى جدران هذه المقابر نقرأ أسماء هؤلاء العظماء . وفي بعض الأحيان نقرأ أيضاً كثيراً مما حدث لهم في حياتهم . فمثلاً نقرأ في إحدى المقابر قصة أحد القواد الذي أنقذ حياة الملك تحوتمس الثالث أثناء صيده للفيلة في آسيا . فقد أسرع هذا القائد في اللحظة المناسبة فضرب بسيفه خرطوم فيل هائج كان يطارده الملك . وكان هنا في طيبة قبر القائد الذي استولى على مدينة يافا في فلسطين وذلك باخفاء جنوده في غرائر وضعها على ظهور الخمر وأدخلها إلى المدينة كبضائع للتجارة ، وهي إحدى المخاطر التي كانت فيما بعد جزءاً من قصة « على بابا والأربعون لصاً » .

ولم يعثر الأثريون على مقبرة هذا القائد بعد ، ولكن طبقاً ذهبياً يحمل اسم هذا القائد يوجد الآن في متحف اللوفر بباريس . ومن المرجح أنه كان في تلك المقبرة ، لأن مقابر المصريين الذين عاشوا في تلك الأيام كانت تملأ بالكثير من



شكل : ٢٨ - أقدم الساعات في العالم - مزولة مصرية

ساعدت شمس مصر الصافية على جعل المزولة آلة سهلة الاستعمال ففي الصباح كانوا يدعون القائم (١ - ١) في ناحية الشرق يسقط ظلّه على القاعدة (ب - ب) في المكان الذي نرى فيه علامة الساعة الأولى - وكلما ارتفعت الشمس كلما أصبح الظل أقصر ، ونرى بعد ذلك علامات الساعة الثانية حتى الساعة السادسة فيكون الوقت قد أصبح ظهراً ، وعند ذلك تدار هذه الآلة لتصبح ناحية القائم (١ - ١) ناحية الغرب حتى يقاس ظل شمس بعد الظهر بالطريقة عينها وقد أخذت أوروبا عن المصريين تقسيم اليوم إلى اثني عشر ساعة وتحمل هذه الساعة الشمسية اسم الملك تحوتمس الثالث أي أنها صنعت منذ ثلاثة آلاف وأربعمائة سنة . وبعد عهوه تحوتمس الثالث بما يقرب من ألف سنة اقتبس اليونانيون هذا النوع من الساعات . والساعة المنشورة في الشكل أعلاه توجد في متحف برلين ، وقد رُمم الأثرى بورخارت قائمها العلوي (١ - ١)

أدوات المنزل يضعها أقارب الميت الغنى بعد وفاته ، فنجد في هذه المقابر الأثاث المنزل والملابس والطعام الذى يحتاج اليه فى العالم الآخر ، حتى الآلة التى كان يستعملها فى قياس الوقت لم ينسوا أن يضعوها معه .

أما الملوك فكانوا يعدون أنفسهم بكل ما يساعدهم على أن يحيا حياة رغدة مترفة بعد الموت ، وأفخم ما وجدناه من الأثاث الجنائزى فى مقابر الملوك هو محتويات مقبرة الملك توت عنخ آمون أحد ملوك الأسرة الثامنة عشر . وتمدنا مقابر الأمباطورية بأشياء أكثر من تلك الأدوات التى كانوا يستعملونها أثناء الحياة . فاننا إذا درسنا النقوش والنصوص التى تغطى جدران مقابر جبانة طيبة نرى التقدم الكبير الذى أحرزه قدماء المصريين فى الآراء الدينية بعد عصر الأهرام . فكان كل واحد من أصحاب القبور يتوقع أن يلاقى حسابه فى العالم الآخر حيث كان أوزيريس هو القاضى الأعظم والملك بين هؤلاء الموتى . وكان كل ميت يستطيع أن يحيا مرة ثانية ، ويقوم من الموت كما فعل أوزيريس ، ولكنه كان مجبراً - قبل أن يحصل على ذلك - أن يقف بين يدى أوزيريس لتوزن روحه فيوضع قلبه فى أحد كفتى ميزان ويوضع فى الكفة الأخرى رمز الحق والعدل على شكل ريشة .

وكان أصدقاء الميت وأهله يضعون فى التابوت الذى يحوى جثته ملفاً من البردى يحوى أوعية وتعاويذ سحرية كان من المفروض أن تعينه فى حياته التى سيحياها بعد الموت ، ونحن نطلق الآن على أمثال تلك الملفات ، كتاب الموتى ، وكان هذا الكتاب ، فى أكثر الحالات حاوياً لمناظر تمثل بعض ما سيراه أو سيلقيه الميت فى الحياة الأخرى . ومن أهم تلك المناظر صورة المحاكمة فى قاعة الحق أمام الإله أوزيريس .

وجاء اليوم الذى تولى الملك امنحوتب الرابع عرش مصر بعد أبيه الملك

امنحوتب الثالث ، وكان قد مضى على تأسيس الامبراطورية نحو مائتى سنة اتصلت فيها مصر بغيرها من البلاد واكتسبت خبرة من حكم مناطق كثيرة تقع فى قارتين على شاطئى برزخ السويس ، وهى منطقة أكبر بمراحل متعددة من وادى النيل الذى كانوا يعيشون فيه .

كانت الامبراطورية هى السبب الذى جعل ملوك مصر يجدون أنفسهم وسط معترك دولى ، وظل آلهة مصر يشدون أزر الملوك أينما امتد نفوذ مصر كما فعلوا من قبل ، وهكذا تدرج المصريون إلى الإيمان بأن إله الشمس « رع » مد نفوذه أيضاً على مصير البشر فى خارج حدود مصر ، أى أنه أصبح إلهاً دولياً وليس إلهاً مصرياً فقط .

ولم يفكر أحد فى ذلك العهد فى أن العالم وحدة أو أن لهذا العالم كله إله واحد يسيطر عليه . ونضجت فكرة الصلة الدولية فى مصر حوالى ١٤٠٠ ق . م . وسرعان ما نمت معها فكرة وحدة العالم . والهرة الأولى فى تاريخ الدنيا ظهرت فكرة إله واحد للعالم كله له سلطان امبراطورى ، وتلك هى أقدم صورة فى التاريخ لفكرة التوحيد كما وصلت إليها خبرة الشرق .

وهنا بزغ فجر جديد فى تاريخ العالم عندما استطاع سكان وادى النيل أن يدركوا أنهم جزء من عالم كبير لا يمكن للإنسان أن يلم بأطرافه وظهر بينهم أيضاً التوحيد قرونا عديدة قبل أن يظهر فى أى قطر آخر .

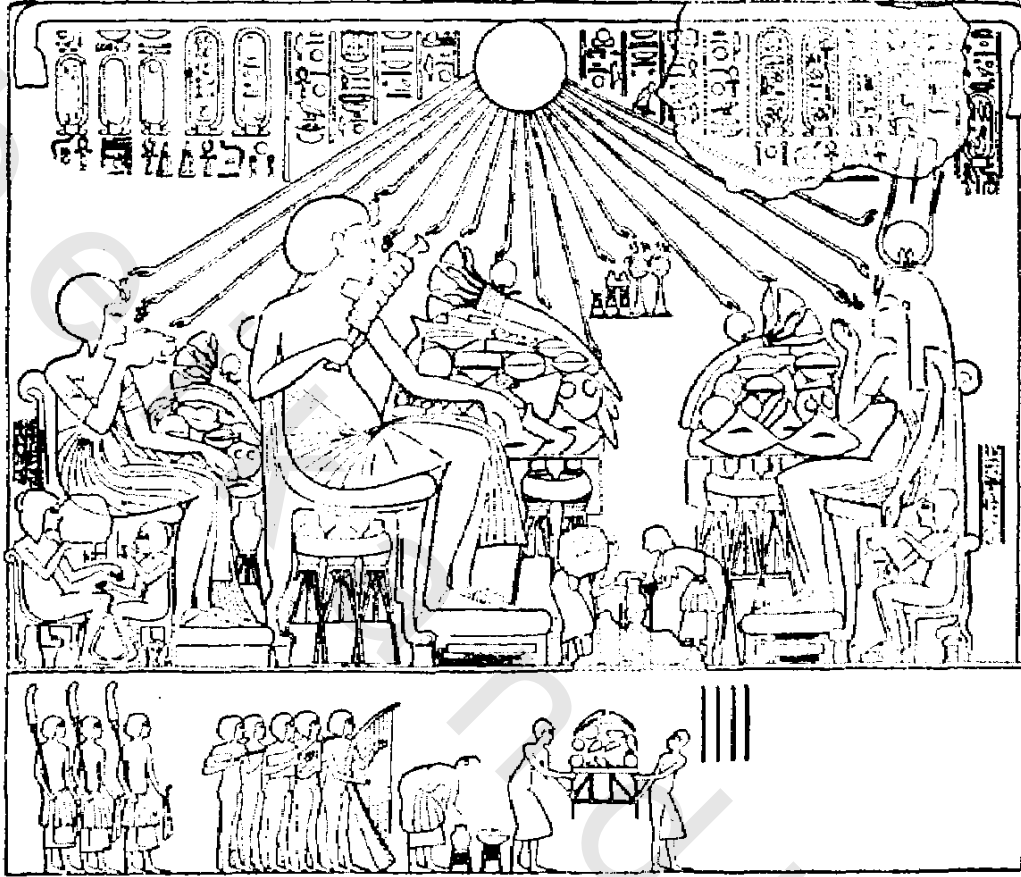
وفى مثل ذلك الوقت الحرج تولى الملك امنحوتب الرابع عرش البلاد حوالى عام ١٣٧٥ ق . م . وكان شاباً كثير التفكير ، شجاعاً لا يخاف ، ولكنه لم يراع الحكمة فى إصراره على إجبار رعاياه على اعتناق فكرة العالمية الجديدة . حاول أن يحطم آلهة مصر القدماء ، وحاول أن يغرى الناس بعبادة إله واحد فقط وهو إله الشمس ، فكان هذا العمل من جانبه حادثاً جديداً لا مثيل له فى التاريخ البشرى ،

وأصدر أمره إلى جميع شعب الإمبراطورية بما فيها آسيا وإفريقيا ليعبدوا إلهاً واحداً سماه « أتون » وأغلق المعابد وطرده الكهنة ليحمل الناس على نسيان دينهم القديم وأمر بمحو أسماء هؤلاء الآلهة أينما وجدوا وبخاصة في نقوش المعابد ، وكره الشرك فأمر أيضاً بتكسير علامة الجمع أينما وردت في أى نص بذكر جمع كلمة « إله » وكانت كراهته شديدة بنوع خاص للإله « أمون » (١) إله طيبة في عصر الإمبراطورية .

ووصلت به كراهيته لأمون إلى حد تغيير اسمه لأن كلمة الإله المذكورة فيه فإن معنى اسم المنحطب هو « أمون راض » فغير اسمه إلى « اخناتون » ومعناها « المفيد لأنون » .

وأخيراً ترك اخناتون مدينة طيبة الفخمة بما فيها من معابد وقصور وبني له عاصمة جديدة في مصر الوسطى سماها « مشرق أتون » ومكانها الآن بلدة تل العمارنة ولم يستمر الناس في سكناً تلك المدينة بعد وفاة اخناتون فهجروها بعد سنين قليلة وما زالت بقايا جدران منازلها وقصورها قائمة حتى الآن بعد أن كشف الباحثون الأثريون عنها . وقبل الحرب العالمية الأولى اكتشفت إحدى بعثات الحفر الألمانية في منزل من منازل تلك المدينة بقايا مشغل أحد المثالين ، ووجدت فيه عدداً كبيراً من القطع الجميلة التي أمدتنا بمعلومات جديدة مذهشة عن فن النحت في ذلك العصر . وتبع اخناتون عدد من الناس آمنوا بدينه واعتنقوه وقطعوا مقابرهم في صخر الجبل القائم وراء المدينة ونقشوا جدران تلك القبور بمناظر جميلة ترينا مظاهر الحياة في تلك المدينة التي نسيها الناس . فنقرأ على جدرانها الأناشيد (٢) التي كتبها اخناتون

١ - « أمون » هو النطق الصحيح لاسم هذا الإله عندما يكون وحده أو عندما يأتي في آخر اسم يكون الإله جزءاً من تركيبه ، أما إذا جاء في أول اسم مركب مثل المنحوتب (كتبه اليونانيون امينوليس) فإن نطقه يتغير وينطق « امن » وعلى ذلك فتكون كتابته « توت عنخ امن » خطأ ويجب أن تكتب « توت عنخ امون » .



شكل : ٣٩ - الملك اخناتون يجلس الى مائدة الغذاء مع عائلته

حُرمت التقاليد القديمة على الملك أن يصور وهو يقوم بأعمال الحياة اليومية بين أفراد عائلته . ولم تكن قبل عصر العمارنة نرى الا لمحات قليلة من الحياة الرسمية ولكن في المقابر الصخرية في العمارنة نرى وجهاء الدولة يتبارون في رسم ملكهم في حياته الخاصة على جدران مقابرهم، وذلك أمر كان حدوثه مستحيلا قبل عصره . فتري مثلا في هذا الرسم الملك الشاب يجلس الى مائدة محملة بأنواع الطعام ، يمسك بيده اليمنى قطعة كبيرة من اللحم يأكل منها بشهية بينما الملكة الى جواره وقد أمسكت بيدها دجاجة كاملة . والى جانب الملكة جلست أميرتان صغيرتان تاكلان بأيديهما كما يفعل والدهما . وفي الناحية اليمنى من الصورة جلست أم الملك والى جانبها ابنة لها تشاركان العائلة في طعام الغذاء . ونرى في وسط الصورة أربعة من الخدم يناولون الطعام بينما أخذت فرقة موسيقى وتريه تشنف أسماعهم بأنغامها أثناء الاكل .

نفسه فى تمجيد إله الشمس وهى ترينا بساطة وجمال إيمان هذا الملك الشاب بالاله الأواحد . فقد أوصلته عقيدته إلى الإيمان بأن الإله الواحد لم يخلق المخلوقات الدنيا فقط ، بل أنه خلق جميع الناس على اختلاف أجناسهم بما فيهم المصريون والأجانب . وكان « أتون » أبارحيا يحافظ على كل مخلوقاته ويغمرها برعايته، حتى الطيور التى تعيش بين النباتات كانت تعترف برحمته فترفع أجنحتها كما يرفع الإنسان ذراعيه شكرا له كما يقول النشيد . ولقد تتبعنا تطور الإنسان وتقدمه فى خلال آلاف السنين ولكننا لم نر أحداً قبل اخناتون عرف الصورة الصحيحة للإله الواحد الرحيم بكل الكائنات .

تدهور وسقوط الإمبراطورية المصرية

ولم يكن في استطاعة عامة الشعب في القرن الرابع عشر قبل الميلاد أن يفهموا عقيدة مثل العقيدة التي نادى بها اخناتون، وامتثلت البلاد بكنهة المعابد الساخطين على الدين الجديد كما امتثلت أيضاً بجنود الجيش الذين أحسوا أنهم أصبحوا مهملين. وتآمر الكهنة سرّاً مع الجند ووجدوا منهم أذناً صاغية، وبدأت الفوضى والاضطرابات تأخذ سبيلها في كل مكان، ولم تقتصر على مصر وحدها بل وصلت أيضاً إلى ممتلكات مصر في آسيا فأخذت هذه الولايات تعد نفسها للقيام بالثورة.

وقد وقفنا على سير الأمور في آسيا من «خطابات تل العمارنة»، وهي مجموعة من الخطابات يبلغ عددها أكثر من ثلاثمائة خطاب كانت مودعة في إحدى مكاتب حكومة اخناتون في تل العمارنة حيث ظلت في مكانها أكثر من ثلاثة آلاف عام حتى عثر عليها بعض الأهالي عندما كانوا يحملون السباخ من خرائب تل العمارنة ليخصبوا به حقولهم.

وهذه الخطابات محررة على قوالب صغيرة من الطين باللغة البابلية والخط المسماري وأكثرها جاء إلى ملك مصر من ملوك غرب آسيا وهي في مجموعها أقدم مراسلات دولية في العالم، ونرى فيها كيف أن هؤلاء بدأوا يفكرون في التحرر من حكم ملك مصر وكيف بدأت الإمبراطورية المصرية تتحطم وتهاوى أركانها.

فالحثيون نزلوا من آسيا الصغرى واستولوا على حدود فرعون الشمالية في سوريا وغزا العبرانيون حدوده الجنوبية في فلسطين آتين من الصحراء، وكانت هذه المتاعب والاضطرابات في داخل مصر وفي خارجها على أسوأ ما يكون عندما مات اخناتون في تل العمارنة. ومهما قيل عن هذا الملك بأنه كان حالمًا ويعيش على آراء مثالية

غير واقعية فليس هناك من ينكر عليه أنه كان أعظم نابغة ظهر في العالم حتى ذلك الوقت .

لم ينجب أخناتون ولداً ذكراً ليخلفه على العرش فزوّج كبرى بناته من شاب من الحاشية الملكية وأشركه معه في الملك ، ولكن هذا الشاب لم يعيش طويلاً ، وعندما أدركته المنية اختار أخناتون شاباً يافعاً آخر اسمه « توت عنخ أتون ، أى (صورة أتون الحية) وزوجه من ابنته الثالثة لأن ابنته الثانية قد ماتت قبل ذلك ، وفعل أخناتون مع توت عنخ أتون ما فعله مع من سبقه فأشركه معه في الملك ، فلما جاء اليوم الذى مات فيه أخناتون أصبح صهره الصغير وحده على العرش .

واستطاع كهنة آمون أن يجبروا الملك الحديث السن على ترك عاصمة أخناتون في تل العمارنة ويعود إلى طيبة مدينة آمون ويغير كلمة أتون في اسمه إلى آمون فأصبح اسمه توت عنخ آمون (أى صورة آمون الحية) .

وهكذا عادت مصر إلى عبادة آمون وغيره من الآلهة واختفت ديانة أتون الجميلة أقدم ما عرفه العالم عن التوحيد ووقف المخلصون لهذه الديانة في وجه توت عنخ آمون ولكن هذا الشاب الصغير لم يلبث أن أصبح ألعبوبة في يد الرجال المجرمين الذين كانوا حوله .

ومات بعد أن حكم فترة تزيد عن ست سنوات ^(١) ولم يكن عمره يزيد عن

١ - تميل الأبحاث الحديثة إلى القول بأن مدة حكم توت عنخ آمون لم تقل عن ٨ سنوات وأنه تولى العرش عندما كان في العاشرة من عمره ، كما يقول أكثر الباحثين بأن كلا من سمنخكارع الذى تزوج كبرى بنات أخناتون ، وتوت عنخ أتون كانا أميرين من العائلة وربما كانا أخوين له من أبيه . ويقول المؤلف أن توت عنخ آمون مات مقتولا ولكن لا يوجد فى الآثار المصرية أى دليل على ذلك ولم يعساف قبولا عند أحد من المشتغلين بالتاريخ (العرب)

الثانية عشر إلا قليلا . وربما كان موته في هذا السن المبكرة لم يكن طبيعياً وإنما قتله الكهنة ذوو المطامع والجنود الذين حوله . وبعد وفاته دفن توت عنخ أمون على مقربة من أسلافه العظام أجداد زوجته ، ولم يكن هناك أمير قوى في العائلة المالكة يشق طريقه إلى العرش ، ولذا زالت أيام أحكام الأسرة الثامنة عشر حوالي عام ١٣٥٠ ق . م . بعد أن حكمت مائتي وثلاثين سنة ، والتي كانت أعظم البيوت المالكة في تاريخ مصر ، وتركت وراءها ذكرى عظيمة لأن ملوكها كوّنوا أول امبراطورية كبيرة في تاريخ الشرق القديم .

انتهى حكم توت عنخ أمون قبل أن يبلغ مبلغ الرجال ، ولو فرضنا جدلاً أنه كانت لديه الحكمة وقوة الخلق التي تساعد على الصمود في وجه أعدائه فإننا لا نتوقع من أى حاكم في مثل ظروفه أن يتابع آراء أخناتون وينجح في تطبيقها ، أى ينجح في تغيير الديانة في مصر وامبراطوريتها .

لم يكن أخناتون يرمى إلى تغيير الديانة تغييراً تاماً فحسب بل أراد أيضاً أن يغير العقلية والعادات والفن . وأراد أن يقتلع كل شيء من جذوره كما يقتلع الانسان جذور النبات ، فقد كان يرمى من وراء حركته أن يخرج من قلوب المصريين عقائدهم التي ربوا عليها وأن يخرج من قلوبهم عاداتهم وعلى الأخص ما كان يتعلق منها بآمالهم الدينية وما كانوا يرجونه من حماية وسعادة في مملكة أوزيريس بعد الموت .

ومن الطبيعي أن نتوقع أن يلجأ الكهنة إلى جميع أعمال الوحشية لتحطيم كل ما أخرجه صناع وفنانو أخناتون ، ونجحوا في ذلك نجاحاً كبيراً فلم يبق إلا النادر القليل الذي يكشف عن جمال الديانة وروعة الفن في أثناء تلك الأيام الثائرة في عهد أخناتون .

وكانت هذه الحقيقة من الأسباب التي زادت في أهمية اكتشاف مقبرة توت عنخ أمون لأنها حوت قطعاً فنية قام بصنعها فنانون عصر أخناتون وكانت هذه القطع الفنية مكدسة في مقبرة صغيرة ذات حجرات أربع نحتت على عجل في وادى الملوك في الناحية الغربية من النيل ، واستطاعت الملكة والمخلصون للبيت المالكة أن يملئوا قبر الملك الشاب بجميع ما يليق بفرعون مصر من أشياء فخمة فوضعوا فيها الأثاث الجميل الصنع ومصنوعات أخرى هي آيات في الفن والعظمة .

وفي تلك الأيام الممتلئة بالاضطرابات السياسية التي مرت على البلاد بعد دفن توت عنخ أمون تمكن اللصوص من الوصول إلى مقبرته ولكنهم ضبطوا وهم متلبسون بجرمهم وحاول حراس الجبانة أن يعيدوا كل شيء إلى أصله وأن يصلحوا ما أفسده اللصوص ولكنهم لم يتقنوا ما أرادوا عمله .

وبعد مائتي سنة من وفاة توت عنخ أمون عندما كانت الامبراطورية في أواخر أيامها أمر الملك رمسيس السادس بحفر مقبرته في وادى الملوك فوق المكان الذي كانت فيه مقبرة ذلك الملك الشاب ورمى العمال بقطع الأحجار فوق مدخلها وبنوا فوق ذلك الرديم أكواخا بسيطة ليقيموا فيها ، وهذا هو السبب الذي جعل مقبرة توت عنخ أمون تظل مجهولة وبعيدة عن أيدي المخربين بعد سقوط الامبراطورية المصرية . وظلت على الحالة التي تركها عليه حراس الجبانة حتى عثر عليها رجال الأثرى هوارد كارتير (Howard Carter) في خريف عام ١٩٢٢ فكانت المقبرة الملكية الوحيدة التي بقيت سليمة حتى العصر الحاضر .

وكنت ممن أسعدهم الحظ فزاروا الصالة الأولى من مقبرة توت عنخ أمون بعد اكتشافها ببضعة أيام فكانت من الأشياء التي لا يمكن للمرء أن ينساها ، فها هو الأثاث الفخم الذي كان يزين يوما من الأيام قصر أحد فراعنة مصر قبل ثلاثة آلاف ومائتين وخمسين عاما . وكان أجمل ما في هذا الأثاث كرسي من كراسي

القصر . كان اسم توت عنخ أمون مكتوباً على أحد ذراعيه ، ولن أنس ما تسرب إلى نفسى من إحساس عندما قرأت على الذراع الآخر اسم هذا الملك الصغير عندما تولى العرش وهو اسم توت عنخ أتون . وبعبارة أخرى كان هذا الكرسي الدقيق الصنع مما أخرجه يد الفنانين الذين عاشوا في أيام أخناتون وأنه كان يستعمل في القصر الملكي في العمارنة قبل أن يرى توت عنخ أمون نفسه مضطراً لتغيير اسمه . ومن هنا اتضح أن تلك المقبرة العظيمة كانت مملوءة بالكنوز الفنية التي تصور لنا الحياة والفن في أيام ثورة أخناتون في الوقت الذي حرر فيه العقل البشرى نفسه من جميع القيود القديمة واتجه ناحية جديدة في الفن وفي الحياة .

وكانت النتائج السياسية لمثل هذا التحرر الثورى وخيمة العاقبة فقد زالت أيام العائلة المالكة القديمة وانتقل الملك إلى بيت جديد تولوا العرش واحداً بعد آخر وكان أهمهم الملك ستي الأول (حوالى ١٣١٣ - ١٢٩٢ ق . م) وإبنه الملك رمسيس الثانى (حوالى ١٢٩٢ - ١٢٥٢ ق . م) .

وبذل كل من الأب والابن جهوداً جبارة متتالية ليعيدوا - ولو الى حد ما - الامبراطورية المصرية ، ولكنهما لم يستطيعا طرد الحيثيين من سوريا لأن هؤلاء الغزاة الأقوياء الذين جاءوا من آسيا الصغرى كانت لهم مواهب حربية ممتازة وكانوا قد عرفوا استعمال الحديد فصنعوا منه أسلحتهم ، بينما كانت الامبراطورية المصرية آخذة في التضاؤل وكانت آخر الممالك العظيمة التي عاشت في البرونزى^(١) . وما زلنا نرى اليوم في آثار طيبة مظاهر السقوط الذي كانت مصر على وشك التردى فيه . ففي مناظر المعارك الحربية التي خاضتها مصر في أواخر أيام

١ - لانعرف على وجه التدقيق الوقت الذى بدأ فيه المصريون يستعملون البرونز ولكننا نجد أن أقدم وقت بدأ فيه المصريون يستعملون البرونز على نطاق واسع وخلفوا وراءهم أدوات برونزية كثيرة كان فى الاسرة الثانية عشر أى حوالى عام ٢٠٠٠ ق . م .

الإمبراطورية نرى كثيراً من الأجانب الذين كانوا في الجيش ، ففي ذلك دليل على أن المصريين بدأوا يفقدون تحمسهم للجندية وأخذوا يستدعون الأجانب ليخوضوا حروبهم بدلا منهم . وكان من بين هؤلاء الأجانب شعوب من شمال البحر الأبيض الذين تحدثنا عنهم عند كلامنا على العصر الحجري ، نرى أفراداً من هذه الشعوب على الآثار المصرية بعد أن تعلوا من شعوب الشرق صناعة المعادن ، نراهم الآن جنوداً ماجورين في الجيش المصرى ومصورين على جدران معابدها يحملون في أيديهم سيوفاً من البرونز عظيمة الحجم . وأخيراً جاء اليوم الذى اتحد فيه أقارب هؤلاء الجنود الأجانب الذين كانوا يعيشون في موطنهم مع غيرهم من شعوب البحر الأبيض المتوسط وغزوا مصر في جموع كبيرة حتى سقطت الإمبراطورية المصرية المتداعية ، وكان ذلك في منتصف القرن الثانى عشر قبل الميلاد .

وفي مدى الأربعمئة سنة التى مرت على الإمبراطورية المصرية كان ملوك الفراعنة يدفنون في طيبة في البر الغربى ، في واد بين الجبال الواقعة خلف تمثالى الملك أمنحوتب الثالث ، وهو الوادى الذى ذكرناه عند حديثنا على مقبرة توت عنخ أمون . ففي جنبات هذا الوادى نحت المصريون ستين مقبرة كانت تسير كل منها على شكل دهليز في جوف الجبل وبلغ طول بعضها بضعة مئات من الأقدام . وفي نهاية تلك المقابر كانت توضع مومياة أولئك الفراعنة لتكون آمنة ولكن في اليوم الذى بدأ فيه الضعف يتسرب إلى الدولة وأذنت الإمبراطورية بالسقوط بدأ اللصوص يعشون بها فلم ينج منها إلا قبر ملك واحد وهو الملك توت عنخ أمون . وحاول الملوك الضعفاء الذين تولوا العرش بعد الأباطرة أن ينقذوا ما بقى من مومياة أسلافهم فأخذوا ينقلونها من مكان إلى مكان حتى أخفوها نهائياً في مكان قطعوه في الصخر في الجبل الغربى . وبقيت مومياة الفراعنة آمنة في

ذلك المكان ما يقرب من ثلاثة آلاف سنة حتى عثر عليها فى عام ١٨٨١ ونقلتها الحكومة المصرية إلى متحف القاهرة .

وكانت تلك المومياة إلى ما قبل أعوام قليلة معروضة فى المتحف وكان فى استطاعة الزائر أن يقف إلى جانبها ويتأمل قسما وجه أولئك الفراعنة الذين حكموا مصر وآسيا قبل أكثر من ثلاثة آلاف عام ، ولكن الحكومة المصرية قررت وضع تلك المومياة فى قاعة خاصة بالمتحف ولا يسمح بزيارتها إلا لأغراض علمية .

ودب الضعف فى قوى الأمة بعد سقوط الأمبراطورية وفقدت حيويتها وقوة ابتكارها وأصبحت مغنما للغزاة الأجانب يستغلون أهلها وينقلون القمح ليطعموا به شعوب البحر الأبيض المتوسط .

وجاء كثير من اليونان والرومان ليزوروا مصر ويتأملوا ما فيها من عجائب قام بها القدماء ، وترك كثير من هؤلاء الزوار أسماءهم منقوشة على الآثار كما يفعل بعض السائحين اليوم عندما يحضرون إلى مصر ليشاهدوا الآثار نفسها .

إن قصة التاريخ المصرى مسطرة على هذه الآثار ولكن بعد مضى دورة من دورات الزمن نسي الناس هذا التاريخ . وكان قد مضى أكثر من ألف سنة على موت آخر شخص كان فى مقدوره قراءة اللغة المصرية القديمة ، ومرت قرون طويلة كان زائرو الآثار يتطلعون إلى تلك الكتابات التى تغطى جدران المعابد والمقابر وغيرها فى جميع أرجاء وادى النيل فلا يفهم أحد شيئا منها .

شمبوليون وحل رموز الكتابة المصرية

ظل العلماء متحيرين وقتاً طويلاً من تلك الألغاز المسطرة على الآثار المصرية والتي لم يستطع أحد منهم قراءتها . ثم جاء الشاب الفرنسي جان فرانسوا شம்பليون (Jean Francois Champollion) وصمم على التغلب على هذه المعضلة وبدأ ينجح في ذلك بعد سنوات من الفشل المر . وكان عالم الطبيعيات الانجليزى توماس يونج (Dr. Thomas Young) قد اكتشف أسماء بطليموس وكليوباترا مكتوبة بالهيروغليفية فاستطاع شموليون بالاستعانة بهذين الاسمين أن يحدد أصوات اثني عشر من العلامات التي ثبت أنها علامات أبجدية ورأى شموليون أنه يستطيع قراءة بعض أسماء الملوك الآخرين وفي عام ١٨٢٢ أرسل خطابه المشهور إلى الأكاديمية الفرنسية معلناً اكتشافه (١) وموضحاً الخطوات التي اتبعها حتى وصل إليه .

ولم يكن في استطاعة شموليون أن يستفيد من حجر رشيد قبل أن يصل إلى هذا الحد في أبحاثه ، وبعبارة أخرى لم يكن حجر رشيد هو المفتاح الأول الذي استعمله شموليون في حل رموز اللغة الهيروغليفية ، بل إن حجر رشيد في الواقع هو الذي ساعده على زيادة محصوله من معرفة العلامات الهيروغليفية في وقت قليل ، كما ساعده أيضاً على معرفة معانى الكلمات وتراكيب الجمل . ومات شموليون

١ - وجد شموليون مسألة مكتوب على قاعدتها نص يوناني يذكر أنها مسألة أحد البطالة وزوجته المسماة كليوباترا وكان على المسألة نفسها نقش باللغة الهيروغليفية ، فكان من رأيه أن هذا النص يجب أن يحتوي على اسمى بطليموس وكليوباترا . وكان قد سبقه باحثون قالوا بأن تلك الخانات البيضاء الشكل التي يكثر تكرارها على الآثار المصرية ليست الا أسماء الملوك . ورأى شموليون أنه يوجد في نقش المسألة اثنان من هذه الخانات البيضاء وأنه يجب أن يكون أحدهما اسم بطليموس والثاني اسم زوجته كليوباترا . وتقدم شموليون خطوة أخرى فأخذ يقارن هذين الاسمين بكتابتهم باللغة اليونانية (بتو ليمايوس وكليوباترا) وخرج من أبحاثه باكتشاف حل لرموز الكتابة المصرية .

فى عام ١٨٣٢ ولكنهُ استطاع قبل أن توافيه منيته أن يكتب أجرومية صغيرة وأن يعد قاموساً صغيراً للغة الهيروغليفية .

وما زال ينقصنا الكثير لنقول أننا عرفنا كل ما يتعلق باللغة الهيروغليفية وكتابتها ، ولكن الجهود العظيمة التى توصل إليها شموليون وضعت الأساس الذى قام عليه العلم الجديد الذى نسميه الآن علم الدراسات المصرية القديمة (Egyptology) . وهذا العلم أعاد للعالم كتابة فصل من تاريخ البشرية فى مدى ثلاثة آلاف عام ويمكن الآثار المصرية من أن تقص علينا تلك القصة المدهشة التى أوصلت الإنسان إلى الحضارة .

وكما توصل شموليون إلى حل رموز اللغة المصرية تمكن علماء آخرون بطرق مشابهة لطريقة شموليون من حل رموز الكتابات التى انتشرت فى طول وادى دجلة والفرات فى آسيا وأخذت آثار تلك البلاد تقص علينا هى الأخرى كيف خرج سكان غرب آسيا من حالتهم البدائية فعرفوا الصناعات وعرفوا أيضاً استعمال المعادن ووصلوا إلى استنباط طريقة للكتابة ثم ارتقوا إلى أن أصبحوا قوة عظيمة فى العالم القديم .

ولنترك الآن قصة مصر وننتقل فى الفصل التالى إلى قصة التاريخ البكر فى الشرق الأدنى فى آسيا .